طبائع الأصحاب

لا يخلو المرء في هذه الحياة من أصحاب يأنس بهم، ويأوي إليهم؛ يُصافيهم الود، ويقاسمهم الإخاء، ويبث لهم الشكوى.

وإن للصحبة الناجحة آداباً يحسن بالصاحب أن يفقهها، ويتمثَّلَها واقعاً مع أصحابه؛ حتى تدوم الصداقة، وتستمر العلاقة.

والناظر في السُّنَّة النبوية يجد فيها آداباً في الصحبة مبثوثة في ثنايا الأحاديث، وتفاصيل القصص، وسيكون الحديث هنا على حادثة وقعت للنبي ﷺ مع أفضل أصحابه وخاصتهم؛ أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم.

تحكي الموقف عائشة رضي الله عنها فتقول: «كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيتي، كاشفاً عن فخذيه، أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوّى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتشَّ[1] له، ولم

---

(١) من الهشاشة، وهي الخفة والاهتزاز والنشاط عند لقاء من يفرح =

تُبالِه[١]، ثم دخل عمر فلم تهتشَّ له، ولم تُبَاله، ثم دخل عثمان فجلست وسوَّيت ثيابك فقال: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»[٢].

وفي رواية أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه، لابسٌ مِرط[٣] عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك، فقضى إليه حاجته، ثم انصرف، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو على تلك الحال فقضى إليه حاجته، ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس، وقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك» فقضيت إليه حاجتي، ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: «**إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت، إن أذنت له على تلك الحال، أن لا يبلغ إلي في حاجته**»[٤].

ومن فوائد الحديث فيما يتعلق مع الأصحاب:

١ ـ أن الحاذق مع أصحابه هو من يفهم طبائعهم، فيعاملهم بحسبها؛ فطبيعة عثمان رضي الله عنه الحياء؛ فراعى

= بلقائه. ينظر: المفهم (٦/ ٢٦٣).

(١) أي: لم تعتن بأمره. ينظر: المفهم (٦/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠١).

(٣) بكسر الميم، وهو كساء من صوف... وقال ابن الأعرابي، وأبو زيد: هو الإزار. ينظر: شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٠٢).

الرسول ﷺ هذا الخُلق الكريم، فلم يقابله بشيء كان معتاداً عند صاحبيه رضي الله عنهما.

وفي ذلك يقول القرطبي: «الحديث دليل على جواز معاشرة كل واحد من الأصحاب بحسب حاله، ألا ترى انبساطه، واسترساله مع العمرين على الحالة التي كان عليها مع أهله، لم يغير منها شيئاً، ثم إنه لما دخل عثمان غيَّر تلك التي كان عليها، فغطَّى فخذيه، وتهيأ له»[١].

فتلقى في الأصحاب من هو سهل الأخلاق، وتلقى فيهم من هو جافي الطباع، وفيهم من هو رحْب الصدر، وفيهم من هو سريع الانفعال، وفيهم خفيف الظل الذي يأنس بالمزح، وفيهم الخجول الذي يثقل عليه المزح؛ وفهمُ طباعهم، ومعاملتهم بناء على ذلك، من أعظم الأسباب في دوام صحبتهم، واستدامة مودتهم.

ومن الخطأ في ذلك معاملة الإنسان لأصحابه حسب طبعه هو؛ لا حسب طباعهم؛ فإن هذا مدعاة إلى أن يفقد ودادهم؛ بل قد يخسر صحبتهم؛ فقد يكون بعض الأصحاب ريحاً مرسلة في المروءة والشهامة؛ فمن تمام عقل هذا الرجل الشهم ألا يحمل أصحابه على مروءته الكبيرة، وشهامته الجزلة، وكرمه الفيَّاض.

---

(١) المفهم (٦/ ٢٦٣).

٢ ـ أن من أراد استيعاب أصحابه؛ واستدامة مودتهم، وتقوية العلاقة بهم، فلا ينبغي له أن يتطلب أن يكونوا سواء في الأخلاق والطبائع؛ فهذا بعيد المنال؛ إذ التباين بينهم غالب.

فهذه كمالات ومناقب تميز بها أصحاب النبي ﷺ بعضهم عن بعض؛ فمنقبة عثمان رضي الله عنه الحياء، ومنقبة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما شدة أنسه ﷺ بهما.

ومن خطأ المرء مقارنته صاحباً بصاحب؛ لأنه إذا قارن صاحباً بصاحب، فسيخسر أحدهم مع الأيام؛ بل الحاذق مع أصحابه من ينظر إلى مواطن الكمال عند كل صاحب؛ فهذا صديق الروح، وهذا صديق العمل، وهذا صديق كثير البر والحياء، وهذا ذو رأي حسن، وهذا غزير الفائدة، موفور العائدة، وهذا طيب السريرة؛ وهذا حسن الخدمة؛ فتَغافلْ عن نقص أصحابك، واستمتعْ بكمالاتهم، تستدم علاقتهم، وتُثَبِّتْ مودتهم.

٣ ـ أن من أعلى درجات الصحبة أن تأنس بصاحبك؛ فتلقاه بدون احتشام ولا تكلف؛ وهكذا كان الرسول ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فهما أفضل أصحابه وخاصته؛ ففي هذا الحديث منقبة لهما؛ ولذا قال ابن هبيرة: «الحديث يدل على فضيلة أبي بكر وعمر، وشدة أنسه ﷺ بهما»(١).

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ٢٤٠).

وقد علَّق المظهري على الحديث بقوله: «قاعدة المحبة إذا كملت واشتدت ارتفع التكلف، كما قيل: إذا حصلت الألفة بطلت الكلفة»[(١)].

وهذا الذي تمناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بقوله: «ما بقي شيء من لذات الدنيا إلا وقد نلته إلا شيئاً واحداً؛ أخاً أرفع مؤنة التحفظ منه»[(٢)].

٤ ـ أن الصديق الناجح هو من يحسن الاستماع إلى أصحابه، وهم يبدون له حاجاتهم؛ حتى يتمكن من قضائها؛ فتأمل في قول النبي ﷺ: «**إني خشيت، إن أذنت له على تلك الحال، أن لا يبلغ إليَّ في حاجته**» فكم في هذا التعبير النبوي من الزكاء واللطف والمروءة!

٥ ـ أن من توفيق الله للرجل أن يكون ملاذاً لأصحابه؛ يفزعون إليه فيما استشكل عليهم من حاجاتهم، وضاقت به حيلهم؛ يجدون عنده محض النصيحة، وسداد الرأي، وقضاء الحاجة.

(١) المفاتيح شرح المصابيح (٦/ ٣٠٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٢).